مظاهر الممارسة النقدية في الخطاب والنّص – دراسة في السياق والتأويل–

Aspects of critical practice in discourse and text - a study in context and interpretation-

د. عبد العزيز الناصر[1]

جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)

nacerabdelaziz2806@gmail.com

د. سيد أحمد محمّد عبد اللّه [2] *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

ab.sidahmed14@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022 /05/08 ـ تاريخ القبول: 2022/05/21 ـ تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

يعالج هذا المقال الفعل النقدي في الخطاب والنّص، حيث يركز على السياق بمختلف أنواعه وكيفية توظيفه في معالج, القضايا النقدية في المنتج اللغوي والفكري، كما يسلّط الضوء على بعض العلاقات التي لها رباط وثيق بالسياق، كعلاقة السياق بالمعنى، والتأويل، إذ أنّ أي منتج فكري أو لغوي أوجدته ظروف سياقية مصاحبة للنّص تتعلّق بسبب إنتاجه ومكانه وزمانه ، هي تاريخ وجوده، تتجسد في بنية لغوية.

أساس هذه البنية الكلمة / اللفظة، باعتبارها الوحدة اللّسانية المنتجة للنّص و الخطاب، ترتقي بالضّم إلى هيكل لغوي وفكري، والتي تربطها علاقات متبادلة تستدعي ممارسة نقدية تظهر مدى الارتباط الوثيق بين النّص وسياقاته .

الكلمات المفتاحية: الممارسة النقدية – الخطاب/النص– السياق –التأويل.

* **المرسل: سيد أحمد محمّد عبد اللّه.**

Abstract: This article deals with the critical act in discourse and text, as it focuses on the various types of context and how to employ it in their treatment of critical issues in the linguistic and intellectual product. Linguistically created by contextual circumstances accompanying the text related to the reason for its production, place and time, is the history of its existence. It is embodied in a linguistic structure, based on the word/verb, as the linguistic unit producing the text and discourse, which rises by joining into a linguistic and intellectual structure, linked by interrelationships that call for a critical practice that is revealed through context and interpretation.

Keywords: critical practice - discourse / text - context - interpretation.

1 ـ مقــدمـة:

يعتبر السياق من المؤشرات النقدية المساعدة على تحليل النصوص والخطابات، إذ يمثل منفذا لآلية حقيقية يستعين بها الكثير من علماء اللّغة والنّص والخطاب لفهم المنتجات اللّغوية من نصوص وخطابات، وذلك عند تحليلها لفهم العلاقة الرابطة بين النّص أو الخطاب كملفوظ والظروف التي أنجز فيها وعلاقتها بالمنتِج – صاحب النص، فعندما يعمد النّقاد إلى تحليل نص، فإنّه سوف تحكمهم "ظروف اللّغة المكون منها هذا النص إضافة إلى البيئة التي ولد فيها وطبيعة كل من المنشئ والمتلقي"[1].(الغويل، 2011، ص:14).

وقد بيّن أولمان أن هناك علاقة متينة بين الكلمة أو اللفظة (المفردة) والسّياق حيث أن المتحكم في ذلك النظام المتواجد في النّص أو الخطاب هو "النّظم اللّفظي للكلمة وموقفها من ذلك النّظم، بأوسع معاني هذه العبارة، أي أنّ السّياق على هذا التّفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السّابقة واللاحقة للكلمة فحسب، بل القطعة كلّها، والكتاب كلّه.

ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللّغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة، لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن"[2] (أولمان، 1992،ص:62).

وبهذا يكون للسياق دور كبير في عملية الممارسة النقدية عند كثير من النقاد الذين يجدون فيه ضالتهم التي يبحثون عنها. ومن ثمّ كيف يمكن للسياق بمختلف أنواعه أن يخدم الناقد؟ وما هي أهم العلاقات التي ترتبط به ارتباطا حتميا في الفعل النّقدي؟

1. حتمية الإلمام بدور السياق في نقد النص وفهمه:

2 .1. الأبعاد الخارجية والداخلية للسياق:

لكلّ نص بُعدان يتحكمان في توجيه معناه ومقصديته، بل حتى لغته تنساق في خطية سياقية ممنهجة أرادها صاحب النص وولدتها ظروف خاصة تختلف عن ظروف أخرى أنتجت نصا أو خطابا ما، فكل كلمة تقال ضمن نسيج لغوي لها ظرف ولّدها وأنتجتها ظروف معيّنة، فلغة النص لها ما ينتجها من أسباب تتنوع من حين إلى حين آخر، ومن مكان إلى مكان آخر.

كما هو ملاحظ في النص القرآني مثلا، فكل حرف وكل كلمة وكل آية وكل سورة لها أسبابها الخاصة وظروفها التي تجعلها تختلف عن شبيهتها مثلما هو الحال بالنسبة للقرآن المكي والمدني، فلغة كل نوع و كل خطاب يختلف عن الآخر من منطلق أنّ كل خطاب له سياق لغوي يختلف تماما عن الخطاب الآخر، وكل مناسبة لآية في القرآن تختلف عن آية أخرى حتى ولو شابهتها، لأنّ كل ظرف أو مناسبة لآية من القرآن تختلف حتما عن آية أخرى، ويوضح ذلك جيّدا السياق اللغوي المحيط بها في السورة.

وللناقد أن يلاحظ ذلك ويكتشفه قبل إصدار الحكم، وله أن يستعين بكتب التفسير بمختلف أنواعها، "وبناء على هذا فإنّه يمكن القول بأنّ تحديد مفهوم السّياق يحكمه بعدان: بعد داخلي وبعد خارجي، فالبعد الدّاخلي يتعلّق باللّغة وتراكيبها من حيث موقع الكلمة بين أخواتها

والهيئة التي انتقلت فيها الكلمات مع بعضها ومكان هذه الائتلافات والتراكيب من الموضوع الجامع لها، أو بعبارة أخرى هو طريقة تسييق الكلمة المفردة داخل الجملة، وتسييق الجملة مع الجمل الأخرى، وتسييق هذه الجمل داخل الإطار الكلي للنّص" .

حتّى "أن المجالات التي يفرضها السّياق عديدة وتتوزع عبر فضاءات معرفية كثيرة، منها ما هو مرتبط بالمتكلم والمتلقي وشروط الإنتاج اللغوي والزمن والمكان... وغيرها" وهذا ما يعني أنّ هناك عوامل خارجية تصاحب النّص إضافة إلى اللغة التي تشكله والظروف التي أنتج فيها. وهذا ما يقصده د/ عبد الفتاح البركاني بمصطلحات المقال والحال والموقف من خلال مناقشته لمفاهيم السّياق حيث قال بأنّ "مفهوم السّياق في معنى الظرف الخارجي يرادفه في التراث العربي كل من المقام والحال والموقف، وأنّ مفهوم السّياق يتّسع أيضا ليشمل ما يعرف في الدّراسات اللّغوية الحديثة بسياق النّص VARBAL CONTEXT وسياق الموقف أو المقام الخارجي وهو يعرف بـCONTEXT OF SITUATION ، أي أن هذا السّياق كما فهمه العلماء الغرب يشتمل على عناصر دلالية تستفاد من المقام جميعا ويمكن تقسيمه تبعا لذلك إلى :

-1السّياق اللّغوي وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النّص.

-2السّياق الخارجي وهو المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النّص. "

وقد نهج كثير من العلماء النهج السياقي في نقدهم للنصوص خاصة عند تحليلها وتفسيرها لفهمها وتحديد مقصودها وغايتها، فاستعانوا بالموقف الذي قيل فيه النص أو الكلام، كون النص تنتجه دافعية التلفظ أو القول، فيختار صاحبه ما يتناسب مع ذلك الظرف من ألفاظ تعبر عن حقيقة الموقف والمقصود الفعلي من الكلام، ولذلك فعند تحليل النصوص يجب الاستعانة بالظرف الذي قيلت فيه وصارت منتجا، فالتحليل اللغوي النصي لوحده غير كاف للوصول إلى حقيقة الغاية والمقصدية النصية التي كانت سببا في إنتاجه.

لهذا كان اهتمام النقاد وعلماء اللغة منصب على فهم النصوص من خلال الموقف الكلامي والظروف المحيطة به. ولذا أشار محمود السّعران إلى ماهيته بقوله: "أنّ سياق الحال أو الماجرى هو جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي، أو للحال الكلامية، أمّا عبده الراجحي فيقول: "إنّه مجموع الظروف التي تحيط بالكلام. "

2.2 . علاقة الممارسة النقدية بالسياق:

ولسياق النص علاقة حتمية بالممارسة النقدية حيث بواسطته يتعرف الناقد على جملة من المعطيات النصية واللغوية التي تساعده على إصدار الأحكام النقدية وتصنيفها حسب مقتضيات القواعد النقدية، ولهذا فإنّ "السّياق يمثل خلفية للقول تجعله يُفهَم بمقتضاها، فكل كلمة أو جملة توضع في إطار أو نسق المعنى، ويعتبر هذا الإطار أو النّسق سياقا لها. فالكلمة المفردة لها سياقها، والتركيب له سياقه والنّص له سياقه، وكلّ هذه السّياقات تتشابك لتنضوي تحت السّياق العام للنّص" كما أنّ النّص بطبيعته "يخضع للسّياق الثقافي الذي يحتويه بكلّ ما فيه من أعراف وتقاليد" . ولكل أمة تقاليد تميزها عن الأمم الأخرى، ولها ظروفها، بل حتى الأزمنة تختلف من فترة إلى أخرى فنص أنتج وقت توسع الدولة الإسلامية يتميز بظروفه عن نص أنتج خلال العصر العباسي،كما يختلف أيضا عن نص أنتجه أديب جزائري في الفترة الاستعمارية، بل أكثر من ذلك، أنّ الأديب نفسه إذا كان مخضرما قد نجد له نصوصا في تلك الفترتين أوجدتها ظروف مختلفة، وشتان بين هذا وذاك. وهذا ما يجعل الناقد يذيب فتاته أثناء الممارسة النقدية، إنّه نتاج سياقات مفردة ومختلفة تتّحد كلّها لتعطي السّياق العام للنّص.

وتعتبر الممارسة النقدية اللغوية على النصوص منفذا هاما للولوج إلى عمق اللغة التي بُنِي بها نصٌ معيّن، لهذا يستعين هؤلاء المحللين والنقاد بالسياق اللغوي أكثر من أيّ نوع من أنواع السياق كونهم يتعاملون مع النص/الخطاب قبل صاحبه، ثم يستحضرون صاحب النص والظروف المحيطة به، وهذه الممارسة مفروضة عليهم مبدئيا، لأن هذا العمل "يتعلق بالتناسق اللفظي في العبارة أو

النّص، وهو لا يخرج عن إطار البنية اللغوية، ويكمن دوره في تحديد معاني الكلمات، وإزالة اللّبس عنها، وإبعاد المعاني الأخر التي تحتملها الكلمة في سياق آخر، وإضفاء صفة الجمال أو الشّاعرية، أو الفنية عليها" وفي هذا الإطار يقول عبد الرحمن بودرع: "السّياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النّص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط وبيئته اللغوية، والتّداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النّص للقارئ" . وتبقى هذه الممارسة من النص ذاته، وهي لا تفي بجملة العمليات النقدية ولا تغنيها عن المزيد من النقد، كون النص له ظروف منشأة له خارجية "تتمثل في الظروف والخلفيات المحيطة بالنّص سواء منها ما يتّصل بالمخاطَب أو المخاطب. وكذلك البيئة الزمنية والمكانية النابع منها النّص، وكذلك يشمل الأسس الفكرية والحياتية القائمة وراءه. وهو بهذا المعنى يشمل جملة الملابسات والأحوال والظروف القائمة في الإطار الزماني والمكاني لعملية التّخاطب.

أما عن النص الشرعي، فلقد تحدّث علماء القرآن عن أسباب النزول، وتحدث علماء الحديث على أسباب الورود، كما تحدث الأدباء والنّقاد عن أسباب وظروف الإنشاء... وهكذا...،وكان العرب القدامى يستخدمون عبارة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وكانوا يعنون بها التلاؤم والمناسبة بين النص وسياقه. وكان المفسرون يقصدون بسبب النزول للآية مقتضى نزولها كما قيل:"معنى معرفة السبب هو معرفة مقتضى الحال" ، لذلك عني علماء القرآن أكثر بمعرفة أسباب النّزول لما لها من أهمية في معرفة حقيقة الآيات والسوّر، وتنوير عقول العلماء والمفسرين، وأهم المناسبات التي نزلت فيها، وهذا ما أشار إليه ابن الأنباري قائلا: "إنك لو تتبعت أسباب النزول في القرآن ومواقع الآيات لتبيّنت أنّ رسالة الرسول لم تكن جملة واحدة ليكون القرآن جملة واحدة، بل كانت أحداثا متلاحقة تقتضي كلمات متلاحقة" .

وإنّك أوّلا لَتعرفَ ظروف نزول كل آية وتقرنها مع أختها ثم تعرف الظروف التي أوجدت السورة كلها وكانت سببا في نزولها ترتسم لك في الأخير صورة عمّا أنت مقبل على فعله.ولهذا

يهتم المفسرون بربط الآيات بسياقاتها ويفسّرون الآيات في ضوء سياقها، وهنا قال أبوحيّان:"إنّما تتعلّق به من حيث إنّ السياق كلّه في قصة واحدة. "

ونورد هنا مثالا للتوضيح أكثر كيف كان لسبب النزول أثر مباشر في الكشف عن العلاقة بين السياق اللغوي للآية والسياق المقامي الذي نزلت فيه، فقد أورد السيوطي في كتابه عدة أمثلة من سورة البقرة يوضح فيها علاقة الآية بسبب النزول.كما هو في قوله تعالى:﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)﴾ (البقرة 19-20) حيث يقول معلقا على هذه الآية "...كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله – صلى الله عليه و سلم- إلى المشركين. فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق ، فجعلا كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما ... أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، فأتيا مكانهما يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمدا فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما و وضع أيديهما في يده، وحسنا إسلامهما فضرب الله شأن هاذين المنافقين، الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة..."

كما أنّ اللغة التي استعملت في وصف هذين المنافقين من ألفاظ وتراكيب وسياقات لغوية جميلة، تتناسب تناسبا حاليا مع حالتهم النفسية، وهم في تلك الظلمة والصاعقة والخوف والرهبة وصممهم وبكمهم لشدة خوفهم، فهم لم يستطيعوا الكلام والحديث وسط هذا الجو المخيف، لذلك انسجمت الألفاظ التي اختيرت لهذا الموقف لحالتهم من حيث القلة والقصر (صم ، بكم ، عمى) لدلالتها على الحالة النفسية التي عاشوها.

ومن هنا يمكن القول ، أنه لكل نص ظروف معينّة خاصة به أوجدته في ظرف ما، وتختلف عن نصوص أخرى، كما أنّ لغته تخالف تماما نصوصا وخطابات أخرى، وعلى الناقد أن يتحرى ذلك بالبحث عنها انطلاقا من المنتج الحاضر أمامه أي من اللغة (البعد الداخلي)، ليتعمّق بذلك ويتوسع إلى محيط النص وظروف نشأته (البعد الخارجي)، وعليه أن يراعي خصوصية كل نص وخطاب، فالخطاب الديني (القرآن الكريم) يختلف جذريا عن نصوص البشر، له من الخصائص ما تفتقده هذه النصوص البشرية، وحتى لا يصطدم مع الأحكام الشرعية فعليه العودة إلى كتب المفسرين والعلماء اتقاء للزلل ودرءا لمفاسد الفهم والتأويل، كما أنّ أعمال ومؤلفات البشر فيها ما يُصوّب من أخطاء وفيها ما يلاحظ فيستحسن أو يُعاب، عندئذ يمكن للناقد إصدار الأحكام النقدية فمختلف أعمال البشر قابلة للنقد إلاّ كتاب فأنّه يفهم، وتُؤخذ منه العبر.

2. الزمكانية السياقية وعلاقتها بالممارسة النقدية:

ونقصد هنا بالزمكانية السياقية الزمان والمكان الذي سيق فيهما النص أو الخطاب، ومما لا شك فيه أن لكل نص زمان ومكان قيل فيهما وتحديدهما يساعدان الناقد على معرفة الكثير من الأمور النقدية التي تساعد على فهم النص أكثر فأكثر، وهما عاملان يندرجان ضمن البعد الخارجي للنص، فالزمن يساعد الناقد على تحديد الفترة التاريخية والوقتية التي سيق فيها النص ويساعد ذلك على فهم الأحداث والقصص تاريخيا، ومادام هناك واقعة تاريخية نصية أو حدث أو قصة فإنه بالضرورة لها مكان وزمان وقعت فيهما، وعلاقاتهما هي علاقة تداعي فكل منهما يستدعي وجود الآخر، فلا نستطيع تخيل وجود حادثة أو قصة أو فعل من دون زمن ومكان "، فالمكان في إطار نظرية السّياق أيضا لا ينفصل عن الزمن والفرق بينهما أن المكان يدرك بشكل مباشر والزمان يدرك من خلال أثره على المكان وما يشغله من أشياء، والاهتمام بالمكان اهتمام في الوقت نفسه بالزمان.

وهذا ما تؤكده مقولة الحال والمقال"[3] (عيد، 2009، 99) ، إذ لا يمكننا أن نفصل النّصوص عن زمكنتها وتخليصها من هذين البعدين، لأنّهما على علاقة متينة بإنتاج النّص، ولدورهما الهام الذي يظهر عند تفسير النّصوص وتأويلها.وهما مؤشران مهمان يضافان إلى ما سبق ذكره من آليات وظروف تخدم الناقد أثناء ممارسته للفعل النقدي، فلكل خطاب أو نص إطار زمني وآخر مكاني قيل فيهما، وبالرجوع إلى هذين المؤشرين يستطيع الناقد التعرّف على الكثير من المعطيات التي قد ترشده إلى مراده. فهما يساعدان الناقد الحصول على معطيات دقيقة في الوقائع والأحداث التاريخية " .

ويشير هايمس إلى أنّه بقدر ما يعرف المحلّل أكثر ما يمكن من خصائص السّياق. بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على الشيء بما يحتمل أن يقال"[4].(خطابي، 1991،ص:53)

ولقد كان البلاغيون مهتمين بهذين المؤشرين وقد سموهما الحال والمقام. و كان لفكرتي الحال والمقام عندهم دورا بارزا في تسييق النصوص حسب الظروف والمناسبة التي قيلت فيها، لذلك كانت عناية البلاغيين بهذه الأوجه في غاية الأهمية، وقد ربط البلاغيون ذلك بالزمان والمكان "ففكرتا الحال والمقال في –مفهوم البلاغيين– مرتبطتان بالبعد الزماني والمكاني للكلام.

وذلك أنّ الأمر الذي يدعو المتكلم لتقديم صياغته على وجه معيّن إمّا أن يتّصل بزمن الصّياغة فيسمى (الحال)، وإمّا أن يتّصل بمحلّها فيسمى (المقام) لأنّ كلّ كلام لابد له من بعد زماني وبعد مكاني، يقع فيه، ومن هنا ارتبطت فكرة الحال والمقام بالمقال، واختلاف صوّر هذا المقال يعود بالضرورة إلى اختلاف الحال والمقام"[5] (عبد المطلب، 1994م، ص:306). ولهذا اهتم السكاكي بمقتضى الحال حيث قال:"لكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حدّ ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال..."[6].(السكاكي، 1987م، ص:168)

وما هذا إلاّ دليل وإقرار بأنّ جودة النصوص تتدخل فيها عملية تسييق الكلمات من طرف المنتجين للنصوص، إنْ هم أحسنوا تخيير الألفاظ والكلمات في نصوصهم وتناسبت مع المكان والزمان ارتقت وعلت إلى رتبة النصوص الجيدة ، وإن هم أساءوا الاختيار في ذلك كتب لهذه النصوص النزول إلى الحضيض.

3. الممارسة النقدية من خلال الكشف عن علاقة السّياق بالمعنى:

يحجم النقاد على نقد النصوص والخطابات المتنوّعة، ويستعينون في ذلك بمناهج النقد المتعددة، ومنها المنهج السياقي في حدّ ذاته الذي يهدف إلى دراسة السياق الذي سيق فيه النص وظهر كمنتج لغوي وفكري، فيفكّون شفراته ويصدرون أحكامهم من خلال المعنى الذي ترشدنا إليه اللغة، وتتضح علاقة السّياق بالمعنى من خلال ما دلت عليه الكلمة في السّياق الذي سيقت فيه، حيث يسهم السّياق في إعطائها المعنى الذي يقصده المتكلم، و"تأتي علاقة السّياق بالمعنى من كون العديد من الملفوظات لا يمكن تحديد معناها بدقّة إلاّ بمعرفة سياقها الذي وردت فيه. فعادة ما يسأل الشّخص عن معنى كلمة فيضطر إلى التّساؤل عن سياقها الذي وردت فيه" .

لذلك لا يجب إهمال السّياق الذي ترد فيه الكلمة، إنّه جزء من عملية الفهم والتأويل والتّفسير الذي يساهم في فكّ شفراتها، بصفته يعطي للمعنى حقيقة دلالتها لأنّه "لا يوجد معنى تام خارج السّياق، ولا يتحقّق المعنى حقيقة إلا داخل السّياق، ويرى هارس أنّ المعنى الحقيقي ليس ما تتضمنه الكلمة في حد ذاتها، وإنّما ما ينتج من علاقاتها مع كلّ عناصر القول" . ومن هنا لا يمكن أن نتصوّر كلمة في معزل عن السياق تؤدي دلالتها الحقيقية والمرجوة، بل إنها تبقى حبيسة معجميتها القاموسية فقط، ولا يظهر حقيقة معناها إلاّ بتوظيفها التوظيف الذي يليق، وتخيّرها المكان الملائم بين صاحباتها من الكلمات، وأي مرتبة أليق بها لحصول المعنى وإنتاجه على القالب الذي يريده صاحب النص والكاتب المنتج.

وقد وجدنا أن" اللغويين يصفون المعنى المعجمي للكلمة بأنه متعدد ويحتمل أكثر من معنى واحد، في حين يصفون المعنى السياقي لها بأنه واحد لا يحتمل غير معنى واحد. "ومن خلال هذا التوظيف يمكننا أن نحدد معنى الكلمة داخل النظام اللغوي الذي احتضنها لأنّه "حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، متجاورة مع كلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصا محددا، وهو كل ما يتعلق بالإطار الداخلي للغة (بنية النص) من تسلسل العناصر وترتيبها، وتقارن المفردات وتتالي الوحدات، وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية الوظيفية، وهي تسبح في نطاق التراكيب، وما يتكون منه من السّوابق واللواحق، يتبعها ليتخذ المعنى شكل الحلقات اللغوية المتسلسلة والتي تعطي معنى متعاضدا ونواميا" .

فالسياق ينتج المعنى الذي تؤديه المنظومة القواعدية التي يتكون منها النص من وجهة نظر نحوية، فالقواعد التي يبنى عليها النص اللغوي يجب أن يتحقق فيها الإنسجام مع دلالة (السياق)، فالسياق النحوي يعمل على أداء معنى الجملة" لأنه من وظائف السياق النبيلة أيضا "وظيفة مهمة في تحديد المعنى الفعلي للكلمات.

ولهذا كانت لغة القرآن في كل مرّة تمدّ الدّارسين بالجديد، لأنّ الجديد فيها هو"أنّه في كلّ شأن يتناوله من شؤون القول يتخيّر له أشرف المواد، وأمسَّها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للإمتزاج، ويضع كلّ مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق به.. بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلاّ مرآته الناصعة، وصورته الكاملة".

وهذا ما يدفع بالمتعامل مع النص مهما كان نوعه أن يحيط بالنص من داخله وخارجه وأن يعرف حالات الكلمة وتوظيفاتها خارج التركيب المراد دراسته، كون الكلمة لها معنيين: معنى معجمي محدود ومعدود، ومعني سياقي حالٌّ أنِيٌّ، وتؤكد الكثير من النظريات السياقية" أنّ لا معنى للكلمة إطلاقا خارج سياقاتها أي خارج التركيب، وبدون مراعاة الكلمات المجاورة لها، سواء كانت التي تسبقها أو التي تلحقها، "إذ في التّركيب وحده تتحقق الكلمة وتكتسب معناها"

ويعتبر هاريس أنّ الكلمة وحدة الكلام واللّسان، "وهي لا تتحقق ولا تتحدّد إلّا إذا ارتبطت بسياق أكبر، وبالتّالي يمكن معالجتها بعيدا عن الجملة، وكلّما زحزحناها أو عزلناها عن مكانها لم تعد ما كانت عليه في السّياق لأنّها فقدت تلك العلاقات التي من شأنها أن تحدّدها" . وعليه فإنّه يمكن القول أنّه للكلمة معنيين :

-المعنى الكامن :POTENTUL وهو معنى الكلمة في اعتبارها وحدة معجمية.

-المعنى المتحقق :REEL هو معنى الكلمة في سياق ما "

إنّ الكلمة المعجمية خارج السياق تكون كامنة المعنى ولا يتحرك فيها المعنى مادامت قارة في مكانها، وتنشط وظيفتها إذا دخلت التركيب واصبحت الكلمات التي تحفها وتحيط بها جزءا من كبّة المعنى وخيطا من خيوطه، فتنشأ تلك العلاقات المتبادلة بين هذه التركيبات وتنسج خيوط المعنى في الصورة والطراز الذي يريده صاحبه، حتى أنّها تشحن بالدلالات التي يقصدها المؤلف شحنا يتناسب مع نفسيته وعاطفته ووضعه الاجتماعي...إلى أن يحقق مراده بذلك التوظيف الذي أراده، فوقع اختياره على نمط وأسلوب معين قاصدا معنى واحدا معيّن لا غيره.

4. علاقة الممارسة النقدية بالسياق والتأويل:

للسّياق وظيفة مهمة في تحديد المعنى الفعلي للكلمات داخل بنية الخطاب والنص، ويظهر الدور الأدائي الفعلي للكلمة العربية خاصة، في توظيفاتها اللغوية وبصفة متميّزة وخاصة في التوظيف القرآني، لأن المعنى الذي تحظى به الكلمة العربية في توظيفها القرآني تغدو به نموذجا يضرب به المثال عن ثراء ذلك التنوع التوظيفي، "فربّ كلمة تراها في موضع ما في الشعر أو النثر كالجوهرة الضائعة ثم تراها بعينها في كلام الله كالدّرة اللامعة"[7] (دراز، 1985،ص:91).

"فاللّفظة قد تروق لك في موضع، وتثقل عليك في موضع آخر"[8] (الجرجاني، 2001،ص:42)، لأنّ المتلقي يبقى متتبعا وفيّا لسياق الكلام اللّغوي، وما يحيط به من ظروف إنتاجه، إنّه معلّق فهمه للكلام بتلك الظروف التي يساق فيها، ولا بدّ عليه أن يفهم وجه

التّناسب بين الكلام والظّروف التي قيل فيها، وفهم الكلام مرهون بفهم السّياق اللغوي ومدى انسجامه مع الظروف التي قيل فيها، حتّى يتيسر الفهم والتّأويل.

ويقوم المعنى في النص بواسطة مجموعة من العلاقات الدلالية التي أساسها أنّ الكلمات ذات المعنى العام والمعقد والمحتمل تتحد علاقاتها وتتخصص دلالاتها عن طريق وضع الكلمات في سياقاتها التي توضح معناها مركبة مع المفردات الأخرى، وتقوم دراسة العلاقات الدلالية في اتساق النصوص على أساس أن الكلمة الواحدة تحدد معانيها ودلالاتها بالقدر الذي تتفاعل مع الكلمات الأخرى وترتبط بها.

"فمعرفة السياق تحصر مجال التأويل الممكن، وتدعمه وأهم خصائص السياق، هي (المرسل – المتلقي –الحضور –الموضوع –المقام– القناة –النظام اللغوي –شكل الرسالة – المفتاح– الغرض)"[9] (السد، 2010م، ص:78)كلها تتداخل في تضييق المعنى وحصره وتقييده.

والملاحظ في هذا الجانب أنّ إشكالية التأويل كانت من اهتمام علماء الدين والفلسفة وبخاصة في الفترة الزمنية من النصف الأول من القرن الماضي، عندما برز للوجود علم السيميائيات أين عرفت ظاهرة التأويل تطورا ملحوظا في الدراسات النقدية من خلال نظريات القراءة، دون أن ننسى ما للسياق من دور في بناء المعنى و الذي يندرج اليوم ضمن ما يعرف بالتداولية.

فلقد وجد العلماء العرب "أن ظاهر اللّفظ وما يحمل من معان يعتمد على السّياق. والمقام لا يعين على الكشف عن معناه وهذا يدل على معرفتهم لأثر السّياق في الكشف عن المعنى"[10].(يوسفي، 2013م، ص:21).

إنّ " تحليل الخطاب بالضرورة هو تحليل للغة في الاستعمال ولأن الخطاب ينقسم إلى معنى ظاهر ومعنى خفي، كان بالضرورة الاهتمام بهذا الجانب للوصول إلى قصد المتكلم أو المخاطب

من خلال ظاهرة التأويل، وذلك لأنّ الخطاب هو ملاذ كلِ مخاطب، والذي يصب فيه أفكاره و رؤاه في أبعاده المختلفة: الثقافية والاجتماعية... و لا يتم ذلك إلا بمحاولة لفك الرموز التي تنغلق على ذاتها، وتبتلع مفاتيحها، ومع هذا الانغلاق تغيب ذات المخاطِب لتظهر ذات المخاطَب الذيَ توكل له مهمة الإبحار عبر عوالم هذا الخطاب، وكسر أقفاله، ومحاولة الولوج إلى أعماقه بما يسمى التأويل، والذي يؤوّل وهذا لا يتم إلاّ من خلال معرفة السياق. إلى بيان المعنى والقصد من مراد المخاطِب"[11](بن زايد،2012، ص:227).

وفي هذا الصدد يقول بييرجيرو: "إن الغموض الذي يلف العلامة المتعددة الدّلالات يزول حين توضع فيها"[12] (جيرو،1984،ص:39)، ونجد بول ريكور الذي ربط التأويل بالنص، عن طريق القراءة المتعددة و الفهم المختلف، كون كل قارئ لنص ما يمكن أن يحدد معنى للنص الذي قرأه بخلاف غيره الذي قدم قراءة مغايرة لما قرأه هذا الأخير، حيث يقول: "التأويل هو فن تأويل النصوص في سياق مخالف مؤلفيها و جمهورها الأوّل، يهدف اكتشاف أبعاد جديدة".[13] وبهذا يعدّ السياق الحل الأمثل للكثير من الإشكاليات التخاطبية فيما يخص الدلالة فهو القرينة الفنية الكاشفة للوجه المراد من المفردة إذ يقوم بعملية ترشيح دلالي للاكتناز المعنوي الموجود في المفردة الواحدة "[14].(الجنابي، 2008، ص:33)

وهكذا نجد أنّ الممارسة النقدية في الفعل النقدي عند النقاد الذي يندرج ضمن المنهج السياقي، يستنبط من جملة من العلاقات المتعلقة بالسياق مع المعنى تارة، ومع التوظيف المفرداتي تارة أخرى، ومع التأويل من جهة أخرى، وتتجاذب هذه العلاقات السياقية ليحصل في الأخير منهج تحليلي نقدي متكامل يحيط بالنص من الخارج، ويتعمق إلى بنيته اللغوية الداخلية. عندها يمكن إصدار أحكاما نقدية متباينة حسب مقصدية النص والخطاب.

4. خـــاتمة:

بين بنية النّص والخطاب علاقات ومعان تكشفها الممارسة النقدية، بالاعتماد على آليات النقد المختلفة، أبرزها ما يبديه السياق، وما تكشفه الممارسة التأويلية للنّص بالارتكاز على مختلف القرائن الداخلية والخارجية. وقد توصل البحث إلى نتائج أبرزها:

1- بنية النص والخطاب تقتضي وحدة أساسية للمنتوج، وهي الكلمة أو اللفظة وعلاقاتها بأخواتها السابقة واللاّحقة التي يتنامى بها المعنى في الخطاب والنص.

2- من شروط الممارسة النقدية الإحاطة والإلمام بالأبعاد الخارجية (الظروف السياقية الخاصة المحيطة بالنص) والأبعاد السياقية الداخلية (السياق اللغوي).

3- يتشكل السياق العام للنص أو الخطاب من مجموع السياقات المتشابكة فيه حيث يبدأ من سياق الكلمة فسياق العبارة فسياق الجملة فسياق الفقرة ثم سياق النص ككل متكامل.

4- في الفعل النقدي أثناء الممارسة على النص الشرعي (القرآن الكريم) يجب على الناقد الاستعانة بأسباب النزول والإطلاع على كتب التفسير والفقه واللغة القرآنية التي لها من الخصائص السياقية ما يجعلها تسمو على لغة البشر.

5- من أهم المؤشرات التي تخدم الناقد وتساعده في عمله، هو معرفة تاريخ وزمن ومكان النص أو الخاطب المنتج.

6- تكمن علاقة المعنى بالسياق من خلال الكشف عن رتبة الكلمة في البنية اللغوية للنص، وكذا تتبع خيوط العلاقات الرابطة بين الكلمات في النص والخطاب، لأنّ الكلمة خارج السياق لها من المعاني ما لها، والسياق هو الكفيل بتحديد معناها الفعلي.

7- للكلمة معنيين : معنى معجمي كامن ، ومعنى سياقي متحقق.

8- إذا أراد الناقد دراسة العلاقات الدلالية في النصوص يجب عليه أن يبحث عن معنى الكلمة في تلك الرتبة والموقع، و يحدد معانيها ودلالاتها بالقدر الذي تتفاعل مع الكلمات الأخرى وترتبط بها، لأنّ معرفة سياق الكلمة تحصر مجال التأويل الممكن.

9- أثناء الممارسة النقدية في الكشف عن علاقة السياق بالتأويل، يستحضر الناقد كل عناصر التخاطب، (المخاطِب/المخاطَب/ النص) والظروف والملابسات التي أوجدت النص.

10- يحصل تأويل النص من خلال الفعل القرائي المتعدد من طرف المتلقي، لترجيح المعاني الدلالية أثناء التأويل، كون المنتج وصاحب النص يختفي من أمامه.

5- قائمة المراجع:

* القرآن الكريم برواية ورش.

1. الأنباري، إبراهيم الموسوعة القرآنية ، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ-1984م، المجلد3.

2. الأندلسي، أبو حيّان، البحر المحيط، ، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد عوض، بمشاركة زكريا عبد المجيد النوتي و أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1993م، ج3 .

3. آيت آوشان، علي، السياق والنص الشعري، من البنية إلى القراءة، ،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1421هـ/2000م.

4. البركاوي، عبد الفتاح، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار المنار، القاهرة، ط1، 1411هـ.

5. بغورة، الزواوي، الفلسفة و نقد اللغة المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، ، دار الطلبة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان،ط1 ، 2005م.

6. بن زايد، نضيرة، علاقة التأويل بالسياق و دوره في يناء المعنى، مجلة الأثر، عدد خاص: بالملتقى الوطني الأوّل حول : اللسانيات و الرواية يومي 22 و23 فيفري 2012م .

7. بودرع، عبد الرحمن، منهج السّياق في فهم النص، سلسلة كتاب الأمة، (العدد111)، نشر وزارة الأوقاف في الشؤون الإسلامية، قطر، السنة السادسة والعشرون.

8. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، ،تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ – 2001 م.

9. الجنابي، م.د. سيروان عبد الزهرة، جدلية السّياق والدلالة في اللغة العربية، النص القرآني أنموذجا، كلية الآداب، جامعة الكوفة، م. حيدر جبار عيدان كلية، الآداب، جامعة الكوفة، العراق، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع 2008م.

10. حدادة، سالم عباس، النقد والسياق، مجلة العلوم الإنسانية جامعة البحرين، ع2، 1999م .

11. خطابي،محمد، لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1991م.

12. خليل، عبد المنعم، نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين، ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007م.

13. دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة . الدوحة، ط 1985م.

14. زوين، علي، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.

15. السد، نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردي، ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، مج2.

16. السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد علي، مفتاح العلوم، ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط2، 1407هـ /1987م.

17. السيوطي، جلال الدين أبي عبد الرحمان، أسباب النزول ، المسمى (لباب النقول في أسباب النزول)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان،ط1، 1422هـ/2002م .

18. يوسفي، اسماعيل، السّياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، ماجيستير، ورقلة ، 2013م.

.19 الشيدي، فاطمة، المعنى خارج النص، أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى للطباعة والنشر، دمشق، 2011م.

.20 عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1994م.

.21 عبد الواحد، عبد الحميد دور الكلمة في اللّسانيات الحديثة، وحدة بحث اللسانيات والنظم المعرفية المتصلة بها، تونس، ط1، 2007م.

.22 عيد، محمد عبد الباسط، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ/2009م.

23. الغويل، المهدي إبراهيم، السّياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية،أكاديمية الفكر الجماهيري، دار الكتب الوطنية، بنغازي، سبأ، ط2011م.

24 .غيرو، بيير، السيمياء، سلسلة زدني علما، ط1، 1984م.

25 .القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، (ت 1332هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ ،ج1.

26. وايلز، كاتي، معجم الأسلوبيات، تر: خالد الأشهب، المنظمة العربية للترجمة،ط1، بيروت، لبنان، إيلول(سبتمبر) 2014م.

6. الهوامش:

[1] – الغويل، المهدي إبراهيم، السّياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية،أكاديمية الفكر الجماهيري، دار الكتب الوطنية، بنغازي، سبأ، ط2011م،ص: 14

[2] – أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1، 1992م، ص: 62.

[3] – عيد، محمد عبد الباسط، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ/2009م، ص: 99.

[4] – خطابي، محمد، لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1991م، ص: 53.

[5] – عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1994م، ص: 306.

[6]– السكاكي ، يوسف بن أبي بكر بن محمد علي مفتاح العلوم، ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط2، 1407هـ /1987م،ص:168.

7– دراز، محمد عبد الله ، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، ،دار الثقافة . الدوحة، ط 1985، ص:91.

8– الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، ،تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ – 2001 م،ص:42.

[9] – السد، نور الدين ،الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، مج2، ، ص: 78.

[10]–يوسفي، اسماعيل، السّياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، ماجيستير، ورقلة،2013م، ص: 21.

11– بن زايد، نضيرة، علاقة التأويل بالسياق و دوره في يناء المعنى، مجلة الأثر، عدد خاص: بالملتقى الوطني الأوّل حول : اللسانيات و الرواية يومي 22 و23 فيفري 2012. ص:227.

[12] – غيرو، بيير، السيمياء، سلسلة زدني علما، ط1، 1984م، ص: 39.

13– بغورة، الزواوي، الفلسفة و نقد اللغة المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطلبة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان،ط1 ، 2005، ص: 126.

14 – الجنابي، م.د. سيروان عبد الزهرة ،جدلية السّياق والدلالة في اللغة العربية، النص القرآني أنموذجا، ،كلية الآداب، جامعة الكوفة، م. حيدر جبار عيدان كلية، الآداب، جامعة الكوفة، العراق، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع 2008م، ص: 33.